الباب الثالث

أقسام المعجزات

انظر كيف نصرف الآيات
ثم هم يصدفون .

الأنعام (٤٦) .

obeikandl.com

تمهيد :

يقسم بعض العلماء المعجزة إلى قسمين: معجزات حسية كانشقاق القمر مثلا ومعجزات عقلية كالإخبار بالغيب، والإتيان بحقائق العلوم التي حصلت من غير تعلم[١] .

ويؤثر بعض آخر إطلاق مصطلح «معجزات قولية» على ما سبق اعتباره «معجزات عقلية» فيقسمون المعجزات إلى معجزات حسية ومعجزات قولية[٢] .

ويؤثر بعض آخر إطلاق مصطلح «معجزات فعلية» على ما سبق اعتباره «معجزات حسية» ويقسمون المعجزة إلى «معجزات فعلية ومعجزات قولية» .

وقد يضيف بعضهم قسما آخر فيقول: إن المعجزات تنقسم إلى ترك وقول وفعل والترك عندهم كأن يمسك عن القوت المعتاد برهة من الزمان بخلاف العادة[٣] ويضيف ابن تيمية : أن[٤] «صفات الكمال ترجع إلى ثلاثة العلم، والقدرة، والغنى، وإن شئت ان تقول: العلم والقدرة والقدرة إما على الفعل وهو التأثير وإما على الترك وهو الغنى» .

ويستطرد ابن تيمية في تفصيلات وتقسيمات فرعية كثيرة كقوله[٥] «وأما القدرة والتأثير فإما أن تكون في العالم العلوي أو ما دونه وما دونه إما بسيط أو مركب والبسيط إما الجو وإما الأرض، والمركب إما حيوان وإما نبات وإما معدن، والحيوان إما ناطق وإما بهيم فالعلوي كانشقاق القمر و«الجو» فكالاستسقاء والاستصحاء والإسراء، وأما الأرض والماء فكتزلزل الأرض وتكثير الماء وأما المركبات فكتكثير الطعام. . . . . ».

ويستطرد آخرون فيجعلون من المعجزات ما يختص بالكمية كتكثير الطعام، ومنها ما يختص بالكيفية كتحويل الماء خمرا[٦] .

---

(١) انظر الرازى : الأربعين جـ ٢ ص ٨٧:٩٠ .
(٢) انظر الطوسى : فى شرحه على الإشارات والتنبيهات ص ٨٠٥ .
(٣) انظر الإيجى : المواقف ص ٣٤١ .
(٤) ابن تيمية : قاعدة شريفة فى المعجزات ص ٥ وانظر النبوات ص ٧ .
(٥) ابن تيمية : قاعدة شريفة فى المعجزات ص ١١ : ١٩ .
(٦) انظر وديعه بدر : عجائب المسيح ص ١١ .

وأرى أن تحقق ما أخبر به النبى من غيب ليس بمعجز بذاته لأنه حدث عادي وإنما الإعجاز في وقوعه كما أخبر النبي .

ومن ثم فيمكن اعتبار هذه المعجزة عقلية باعتبار أن عقل الرسول معجز لأنه علم بإعلام الله تعالى ما لا تعلمه عقولنا .

كما يمكن اعتبار هذه المعجزة حسية لأننا إنما سمعنا لنبوءة بآذاننا ورأينا تحققها بأعيننا .

ولكنى أرى أن ترجيح اعتبار حال المخاطبين أولى من حال صاحب المعجزة لوضوح حالهم وهو أنهم تلقوا المعجزة بالحس ولأنهم هدف الخطاب بالمعجزة .

ولكن الحس لا يستقل بالإدراك ما لم يكن هناك عقل، فالمجنون والحيوان يشاهدون المعجزة، ولا يدركون دلالتها، ولا تعني شيئا لهم، فالحس والعقل لا ينفصلان. فالعقل لا يدرك إلا ما يأتي به الحس إليه، والحس لا يدرك شيئا ما لم يكن معه عقل يؤدي الحس إليه معطياته ليفسرها ويفهمها .

وإنما توصف المعجزة بالحسية أو بالعقلية بحسب التغليب ومن ثم فإني أميل إلى اعتبار معرفة الغيب للرسول معجزة حسية.

ثم إنا إذا اعتبرنا أن الكلام فعل لأنه ليس شيئا آخر، بطل ذلك التقسيم الذي يفرق بين القول والفعل .

وأما تقسيم ابن تيمية للمعجزات من حيث العلم والقدرة فيمكن رد العلم أيضا إلى القدرة على العلم .

أما تلك التقسيمات الفرعية التي ذكرها ابن تيمية وغيره فأرى ألا فائدة منها.

وأميل إلى تقسيم المعجزة من حيث كونها حسية (أي مادية) أو معنوية أى (عقلية أو كلية) .

الفصل الأول

تقسيم المعجزات من حيث كونها حسية أو معنوية

obeikandl.com

مفهوم المعجزة الحسية والمعجزة المعنوية :

ـ فالمعجزة الحسية هي كل ما أيد النبي وكان خارقا حسيا لعادة .

ـ والمعجزة المعنوية هي كل ما أيد النبي وكان خارقا معنويا للعادة. من حيث أنه أمر كلي غير متعين في الخارج وإن تعينت بعض جزئياته في الخارج المحسوس كأمانته وصدقه وصدق دعوته، فإنما دل عليها اختباره واختبار شرعه وما دل عليه في مواقف حسية مشاهدة ، فكل موقف من مواقف الصدق لا يمثل معجزة معنوية، وإنما يمثل قرينة من قرائن الصدق وإنما الإعجاز المعنوي هو محصلة لهذه المواقف، وغيرها مما اصطلح على تسميته بدلائل النبوة أو أعلام النبوة وإن كان هذان المصطلحان يشملان المعجزة الحسية أيضاً .

فالمعجزة المعنوية أي العقلية أو الكلية: هي مجموع قرائن الصدق التي تعود إلى حال الداعي وقيمة الدعوى والتي تولد العلم الضروري بالصدق وإن اختلفت قيمة إعجاز هذه المحصلة تبعا للكم والكيف والإنسان المخاطب، فهناك تناسب عكسي بين هذه الأطراف الثلاثة، فكلما رجح عقل المخاطب اكتفى بكم أقل، وكيف أقل، والعكس وكلما عظم الكيف قل الاحتياج للكم والعكس .

ويؤكد صحة إطلاق مصطلح معجزة على مجموعة قرائن الصدق هو تحقيق مفهوم الإعجاز فيها فيعجز الكاذب عن ادعائها جملة يقول الماوردى فى ذلك:[1] «إن تكامل الفضل معوز فصار كالمعجز و. . . . كمال الفضل موجب للصدق والصدق موجب لقبول القول فجاز أن يكون من دلائل الرسل».

ثم إن الواقع يشهد أن الكمال الأخلاقى الذى يتصف به النبى كان دليلا قاهراً ألزم الكثيرين الإيمان به .

كما أنه ليس في القرآن ولا في السنة ذكر لهذا المصطلح(المعجزة) باعتبارها خارقا حسيا، وإنما فيهما البينة والبرهان والآية . . . . إلخ .

وهو ما ذهب إليه الفخر الرازي حين قسم المعجزات إلى حسية وعقلية وقسم المعجزة العقلية إلى أقسام لا تحمل دائما المعنى التقليدي للمعجزة.

---

(١) الماوردي : أعلام النبوة ص ١٨١ .

فبعض هذه الأقسام ليس إلا ما اصطلحنا على تسميته بالقرائن، مثل كونه ـ ﷺ ـ في الغاية القصوى من الكمال في كل واحدة من صفاته، وأنه بقى على ذلك من أول عمره إلى آخره [1] .

وكذلك الحال عند «الكرماني» في مفهومه للمعجزة فهو يقول[2] «وأعظم المعجزات من الرسل عليهم السلام عندنا كون ما يأتون به عن الله تعالى من الأمور المتضمنة رسوم الشرائع المعقودة بسنن المناسك مناسبا لخلق الله . . . فإن ذلك هو المعجز الثابت الذي يعجز عنه من كان متنبئا وإن اجتهد».

وكذلك الحال عند ابن كثير فيرى أن دلائل النبوة نوعان حسية ومعنوية ومن الدلائل المعنوية أخلاقه عليه السلام وطيب مولده ومنشئه وشريعته إلى أمته وهو ما ذهب إليه ابن تيمية أيضاً في الجواب الصحيح [3] .

وبناء على ذلك فإعجاز القرآن الكريم هو إعجاز حسي ومعنوي في آن واحد فهو حسي مثلا من حيث إعجازه بالنغم وهو معنوي من حيث إعجازه التشريعي والمنطقي . . إلخ .

٢ ـ مقارنة بين المعجزة الحسية والمعجزة المعنوية :

أولا : من حيث جريانها مجرى برهان اللم ، أو برهان الإنّ :

فالمعجزة المعنوية تجري عند المناطقة مجرى برهان «اللم»[4] لأن البحث فيها كان عن معنى النبوة .

أما المعجزة الحسية فتجري مجرى برهان «الإنّ» [5] الذي يستدل فيه بأثر من آثار الشيء على وجوده .

وإذا كان برهان اللم أقوى في الاستدلال من برهان الإنّ فإن هذه الطريقة أي طريقة المعجزة المعنوية أفضل من طريقة المعجزة الحسية في الاستدلال .

---

(١) انظر الرازى : الأربعين جـ ٢ ص ٨٧ : ٩٦ .

(٢) الكرماني : راحة العقل ص ٥٧٠ . (٣) انظر ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٦ ص٧٢ .

(٤) فبرهان «اللم» هو الذى «يعطى السبب فى التصديق بالحكم» ويعطى السبب فى وجود الحكم «فهو مطلقا معط للسبب» (ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ص ٨٤) . (٥) أما برهان الإنّ «فهو البرهان الذى يفيد أن الشيء موجود من دون أن يبين سبب وجوده (جميل صليبا: المعجم الفلسفى جـ ١ ص ١٣٧) .

ثانيا: من حيث الاستقلال الدلالي :

١ ـ المعجزة الحسية لاتستقل في دلالتها عن المعجزة المعنوية

للمعجزة الحسية وجهين ومستويين من المعنى: وجها منظورا(الحادثة التي يستطع كل إنسان أن يلاحظها)، ووجها غير منظور(هو المعنى الديني الذي يدركه المؤمن)فأنت إن قدمت زهرة لعالم في النبات، يكون رد فعله رد فعل عالم اختصاصي، فيسأل: «ما هذا؟» وهو يحلل الزهرة ويصنفها، وإن كان يجهلها، فلن يألوا جهداً حتى يهتدي إلى أصلها، وإن قدم شاب زهرة لخطيبته، فإنها ترى فيها رسالة. لأن هذه الزهرة تعبر عن شيء ما فلا يكون سؤالها: «ما هذا؟» بل«ما معنى هذا؟» وهكذا ينظر إلى الزهرة نفسها من زاويتين متباينتين في المعنى، مع أن هاتين النظرتين لا تتعارضان في الجوهر ـ فبين علماء النبات عشقا ـ وإن اختلفتا في المدلول كل الاختلاف ظاهريا. في نظر العلم لا وجود للمعجزة. بل ليس هناك إلا حادثة بارزة للعيان. فالغاية من العلم هي تفسير كنه العالم والأحداث، ولابد لذلك من الاهتداء إلى العلل. يقوم مبدأ العلم على شيء من الحتمية، أي على خضوع الطبيعة لبعض قوانين على العلم أن يكتشفها، إذ أنه يستطيع عندئذ أن يؤثر في العلل ويعمل كلما شاء على تكرار الحادثة نفسها وما لم يهتد العلم إلى تفسير حادثة معينة لا يسعه إلا أن يعترف بجهله وأن يواصل البحث. المعجزة كمعجزة لا يعترف بها إلا المؤمن، إذ لا تعد الهدية بين الأصدقاء«هدية»، مالم يقم بينهم رابط صداقة أو على الأقل حد أدنى من المعرفة يجعلهم يكتشفون في الشيء المقدم علامة صداقة فالشيء الذي يعطيه مجهول في الشارع يكون سؤالا لا علامة. والمؤمن أو الذي تخامره على الأقل فكرة عن الله ويكنز في قلبه استعدادا للإيمان، يرى في الحدث الذي يبدو له خارقا بادرة عطف من لدن إلهه. لكن هذه الرؤية لا تتم انطلاقا من الحادثة المنفردة، فهي لا تتسم بالمعنى المقصود منها إلا إذا اتصلت بحوادث أخرى وبأقوال تثبتها [1] .

وهذا هو المعنى الذي قصده الفيلسون الرياضي بليزبسكال عندما لاحظ أن حركات الكواكب والطيور في الهواء قد تشهد على ذكاء الإله وعنايته في نظر

(١) أنظر اتيان شار بنتيه وآخرون :المعجزات فى الإنجيل ص ٥ : ٧ .

إنسان يؤمن فعلا بوجود الله. ولكنها عاجزة في حد ذاتها عن إزالة الإنكار الأساسي لوجود الله. فإن ما يجعل الملحد متصلبا في إلحاده ليس ضعف الشواهد الموجودة في العالم المنظور. بل قرارا اتخذته الإرادة والعواطف .

وقيل إنه كلما كنت أكثر إيمانا كلما كثرت المعجزات التي تجد في كل مكان[1] .

فما لم تكن هناك معجزة معنوية موجهة للعقل أولاً ولهذه الإرادة والعواطف التي تشكل موقف الإنسان من الله فلا معنى للمعجزة الحسية [2] .

وفي ذلك يقول الغزالي: إن الخارق الحسي«إذا نظرت إليه وحده، ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر ربما ظننت أنه سحر وتخييل، وأنه من الله إضلال فإنه﴿يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ [3] ثم يقول: «فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن في جملة نظرك، حتى يحصل لك علم ضروري لا يمكن ذكر مستنده على التعيين» [4] .

ويقول ابن رشد أيضا في ذلك إن المعجزة الحسية لا «تدل دلالة قطعية إذا انفردت. إذ كانت ليست فعلا من أفعال الصفة التي بها سمي النبي نبيا. وأما القرآن [والمعجزات المعنوية]فدلالته على هذه الصفة هي مثل دلالة الإبراء على الطب .

ومثال ذلك لو أن شخصين ادعيا الطب فقال أحدهما الدليل على أني طبيب أني أسير علي الماء وقال الآخر الدليل أني أبرئ هذه المرضى، لكان تصديقنا بوجود الطب للذي أبرأ المرضى ببرهان وتصديقنا بوجود الطب للذى مشى على الماء مقنعا ومن طريق الأولى والأحرى. . . . . وما يقع فى النفس هو أن من أقدره الله

---

(١) "The more religious you are the more miracles you will find every_ where" John Lewis : The Religions of the World p 142
وانظر Hastings Rashdall : Philosophy and Religion pp. 129 : 140
"Acceptance of miracles...based on faith "
Antony Flew : A Dictionary of Philosophy p.217 .

(٢) فإن المعجزة حتى ولو أثبتت بالبراهين التاريخية الكافية فإنها لا تفيد بالضرورة يقينية المصدر الإلهى حتى تتجسم التعاليم مع خصيصة الله والعقل والضمير،فالمعجزة والتعاليم يوضح كل منهما الآخر
The New Encyclopaedia Britannica Vol .15 p.586 .

(٣) فاطر : ٨ . (٤) الغزالى : المنقذ من الضلال ص ٨٣ ـ ٨٤ .

على هذا الفعل الغريب وخصه به من سائر أهل وقته فليس يبعد عليه ما يدعيه من أنه قد آثره الله بوحيه»[1] .

«فالمعجز في العلم والعمل هو الدلالة القطعية على صفة النبوة، وأما المعجز في غير ذلك من الأفعال فشاهد لها ومقو»[2] .

وابن تيمية كذلك يؤكد على العلاقة الدلالية بين المعجزة الحسية والمعجزة المعنوية، وأن المعجزة الحسية لا تستقل في دلالتها عن المعجزة المعنوية وذلك في قوله:[3] «فلو قدر أن رجلا جاء في زمان إمكان بعث الرسل، وأمر بالشرك وعبادة الأوثان وإباحة الفواحش والظلم والكذب، ولم يأمر بعبادة الله ولا بالإيمان باليوم الآخر هل كان مثل هذا يحتاج أن يطالب بمعجزة أو يشك في كذبه أنه نبي؟ ولو قدر أنه أتى بما يظن أنه معجزة لعلم أنه من جنس المخاريق أو الفتن، والمحنة ولهذا لما كان الدجال يدعى الإلهية لم يكن ما يأتي به دالاً على صدقه للعلم بأن دعواه ممتنعة في نفسها وأنه كذاب» .

وهذا مما استدل به«ثمامة»على كذب مدعي النبوة فقد روي البيهقي أن رجلا تنبأ في أيام المأمون فقال للحاجب: أبلغ أمير المؤمنين أن نبى الله بالباب، فأذن له فقال ثمامة: ما دليل نبوتك؟قال: تحضر لي أمك فأواقعها فتحمل من ساعتها وتأتي بغلام مثلك فقال ثمامة: صلى الله عليك أيها النبى رحمة الله وبركاته أهون عندي من إحضارك أمي ومواقعتها .

وورد في الكتاب المقدس على لسان المسيح عليه السلام«إن قال لكم أحد هو ذا المسيح هنا أو هو ذا هناك فلا تصدقوا، لأنه سيقوم مسحاء كذبه وأنبياء كذبة، ويعطون آيات وعجائب لكي يضلوا لو أمكن المختارين أيضا»[4] .

ولكنه عليه السلام جعل الفرق في قوله: «من الثمر تعرف الشجر»[5] وورد كذلك في الكتاب المقدس«احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة من ثمارهم تعرفونهم. هل يجتنون من الشوك عنبا

---

(١) ابن رشد : الكشف عن مناهج الأدلة ص ١١٩ .
(٢) السابق ص ١١٦ .
(٣) ابن تيمية : شرح العقيدة الأصفهانية ص ٩١ .
(٤) مرقس الأصحاح (١٣) آية (٢١:٢٢)، وانظر كذلك متى الأصحاح (٢٤) آية (٢٤) .
(٥) متى الأصحاح (١٢) آية (٣٣) .

أو من الحسك تينا، هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارا جيدة، وأما الشجرة الردية فتصنع أثمارا ردية لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثمارا ردية ولا شجرة ردية أن تصنع أثمارا جيدة. كل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار فإذاً من ثمارهم تعرفونهم»[1].

وفي العهد القديم ورد في سفر التثنية: «إذا قام في وسطك نبي أو حالم حلما وأعطاك آية أو أعجوبة ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التي كلمك عنها قائلا لنذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم لأن الرب إلهكم يمتحنكم لكي يعلم هل تحبون الرب إلهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم»[2].

ونحن في عصرنا هذا بعد وفاة موسى عليه السلام لو أتى سحرة بعصى لهم وقلبوها حيات لأشكل الأمر علينا، وليس معنا عصا موسى التي تبين الفرق بين المعجزة والسحر، ولا ينجينا من ذلك إلا إيماننا بأن المعجزة الحسية لا تستقل في دلالتها عن المعجزة المعنوية وأن رسولنا ﷺ هو خاتم الأنبياء.

٢ - دلالة المعجزة المعنوية تغني عن المعجزة «الحسية»:

يقول الباقلاني[3]: «وقد اتفق على أنه لا دليل يفصل بين الصادق والكاذب في ادعاء الرسالة إلا الآيات المعجزة» ويقول أيضاً:[4] «المعنى الموجب لظهور المعجزات على أيدي الرسل إنما هو كونهم أنبياء الله سبحانه» وهو يعني المعجزات الحسية.

ويقول شارح العقيدة الطحاوية «لا ريب أن المعجزات دليل صحيح لكن الدليل غير محصور في المعجزات، فإن النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين، أو أكذب الكاذبين. ولا يلتبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما وتعرف بهما»[5].

ويقول ابن تيمية:[6] «لم يكن من شرط الإيمان بالأنبياء وجود الآيات [الحسية] بل قد يعلم صدقهم بدون ذلك... فدلائل الصدق لا تنحصر كدلائل الحب والبغض هي كثيرة جداً».

---

(١) السابق الأصحاح (٧) آية (١٥ : ٢٠).

(٢) سفر التثنية ١٣ / ١ ـ ٣. (٣) الباقلاني: البيان ص ٣٨.

(٤) السابق ص ٤٤. (٥) صدر الدين بن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية ص ١٥٠.

(٦) ابن تيمية: النبوات ص ١٩٢.

ويقول أيضا: إن«كل من بنى إيمانه على المعجزات يظن أن لا تعرف نبوة الأنبياء إلا بالمعجزات [الحسية] وللنظار هنا طرق متعددة منهم من لا يجعل المعجزة دليلا بل يجعل الدليل استواء ما يدعو إليه وصحته وسلامته من التناقض ومنهم من يجعل أدلة أخرى غير المعجزة، وهذا أصح الطرق»[1].

وهذا هو الصحيح، لأن الطرق إلى معرفة الله تعالى كثيرة .

وأما قول الجويني:[2] «فإن قيل: هل في المقدور نصب دليل على صدق النبي غير المعجزة؟ .

قلنا: ذلك غير ممكن: فإن ما يقدر دليلا على الصدق لا يخلو: إما أن يكون معتادا، وإما أن يكون خارقا للعادة فإن كان معتاداً يستوي فيه البر والفاجر فيستحيل كونه دليلا» .

فأفهمة نصا على إثبات المعجزة المعنوية أيضا لأنها معجزة وليست معتادة وليست ممكنة لأي أحد كما أنها لا يستوي فيها البر والفاجر. وليس من المعتاد أن تجتمع قرائن الصدق حتى تؤدى إلى العلم الضروري بالصدق ويكون الشخص كاذبا، وكيف يستويان ومع أحدهما قرائن الصدق ومع الآخر قرائن الكذب الكافية لتوليد العلم الضروري بالصدق أو الكذب .

وادعى محمد بن إبراهيم الوزير: «أن العقل لا يوجب المعجزة الحسية في النبوة [اكتفاء بقرائن الأحوال] وإنما وجب ذلك سمعا . . . وذلك السمع . . . هو الإجماع»[3] ثم ناقض نفسه مخالفا ذلك الإجماع المزعوم فقال[4]«وإن كان صاحب كتاب الدعائم من الإمامية أجاز ذلك عقلا وسمعا واحتج عليه لكن فيه شذوذ» .

ونحن لا ندري مستند ذلك الإجماع، وقد جعل ابن تيمية والغزالي والمرجاني وغيرهم ومحمد بن إبراهيم الوزير ـ نفسه ـ دلالة المعجزة المعنوية دلالة ضرورية.

---

(١) ابن تيمية : شرح العقيدة الأصفهانية ص ٨٨ (بتصرف) .
(٢) الجويني : الإرشاد ص ٢٧٨ .
(٣) محمد بن إبراهيم الوزير : البرهان القاطع ص ٤٠ .
(٤) السابق ص ٤٠ .

يقول ابن تيمية: إن[1] «خبر الواحد المجهول من آحاد الناس قد يقترن به قرائن يعرف بها صدقه بالضرورة فكيف بمن عرف صدقه وأمانته وأخبر بمثل هذا الأمر الذي لا يقوله إلا من هو من أصدق الناس أو من أكذبهم، وهم يعلمون أنه من الصنف الأول دون الثاني» .

ويقول أيضاً: إن «كثيرا من الناس يعلم صدق المخبر بلا آية البتة، بل إذا أخبره وهو خبير بحاله أو بحال ذلك المخبر به أو بهما علم بالضرورة إما صدقه وإما كذبه» .

ويقول ابن تيمية كذلك: إن «أكثر الخلق إذ علموا ما جاء به موسى ومحمد علموا صدقهم بالضرورة، ولهذا لا يوجد أحد قدح في نبوتهم إلا أحد رجلين إما رجل جاهل لم يعرف أحوالهم وإما رجل معاند متبع لهواه»[2] .

ويقول الغزالي في هذا:[3] «فليكن مثل هذه الخوارق إحدى القرائن والدلائل في جملة نظرك حتى يحصل لك علم ضروري لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين كالذي يخبره جماعة بخبر متواتر لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين، بل من حيث لا يدري، ولا يخرج عن جملة ذلك ولا تتعين الآحاد، فهذا هو الإيمان القوي العلمي» .

بل إن الغزالي يؤكد على اعتبار أن خوارق الأنبياء الحسية ما هي إلا إحدى القرائن في جملة النظر قائلا:[4] «فأعظم بغباوة من ينظر في أحواله، ثم في أفعاله ثم في أخلاقه، ثم في معجزاته، ثم في استمرار شرعه إلى الآن، ثم في انتشاره في أقطار العالم، ثم في إذعان ملوك الأرض له في عصره، وبعد عصره، مع ضعفه ويتمه، ثم يتمار بعد ذلك في صدقه» .

ويقول المرجاني محشي شرح الدواني:[5] «إن الأحكام الشرعية كلها حتى

---

(١) ابن تيمية :النبوات ص ٢٤٤ .

(٢) السابق . نفس الموضع.

(٣) الغزالي : المنقذ من الضلال ص ٨٤ .

(٤) الغزالي : إحياء علوم الدين جـ ٢ ص ٣٨٧ .

(٥) انظر القاسمي : دلائل التوحيد ص ٦٦ : ٦٧ .

وجوب تصديق مدعي النبوة وصدق دعواه في البعثة، تثبت بخبر الرسول ـ ﷺ ـ لأن ما يعطي وجوب الاعتقاد هو الشرع لأن الحاكم عندنا هو الله تعالى ليس إلا ولا يلزم الدور من ثبوت الشرع بنفسه لأنه لا يتوقف إلا على العلم بصدقه(أي صدق الرسول) وهو حاصل لتمكن العاقل منه فرط التمكن كأنه مركوز في فطرته يكفيه التذكير من الشارع بحمله على الالتفات إلى دعوته فإذا التفت إليه المخاطب أدنى التفات يحصل له المعرفة بصدقه كما قال تعالى[1] **﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾** أي ليستحضروا ما هو كالمركوز في عقولهم لفرط تمكنهم منه. . .ولو تنزلنا عن دعوى الضرورة والظهور، فنقول ثبوت المعجزة وصدق النبوة يستند إلى قضية عقلية يعطيها النظر في أحوال النبي وأفعاله وأخباره وأقواله التي تضمنها القرآن واشتملت عليها دواوين السنة وكتب السير والآثار» .

والنبي لابد له من إظهار معجزة تدل على صدقه، فإذا أتى بها وبان لقومه وجه الإعجاز فيها لزمهم تصديقه وطاعته، ولم يكن لهم مطالبته بمعجزة أخرى، فإن طالبوه بأخرى فإن شاء الله عز وجل أظهر الأخرى توكيداً للحجة عليهم، وإن شاء عاقبهم على ترك الإيمان بمن قد دلت المعجزة على صدقه. والمعجزة الواحدة كافية في الدلالة على صدقه ومن لم يؤمن به بعدها استحق العقاب .

فإن طلب المتعنتين لا أمد له، ومن المعلوم أن من قامت عليه حجة بينة في مسألة حق من حقوق العباد ليس له المطالبة بأخرى وإلا كان ظالما، ولا يمكن الحكام الخصوم من ذلك. وهذا يؤكد على ما سبق من أن المعجزة المعنوية إذا كانت دلالتها ضرورية وقامت بها الحجة، لم تجب المعجزة الحسية .

إلا أنه قد يكون في تتابع الآيات حكمة لله عز وجل فيتابع بينها، فإن الأدلة كلما كثرت وتواردت على مدلول واحد. كان أوكد وأظهر وأيسر لمعرفة الحق فقد يعرف دلالة أحد الأدلة من لم يعرف دلالة الآخر وقد يبلغ هذا ما لم يبلغ هذا.

ومحمد بن إبراهيم الوزير ـ نفسه ـ الذي يدعي الإجماع على وجوب المعجزة الحسية في النبوة، بالرغم من اعترافه أن العقل لا يوجب ذلك اكتفاء بقرائن

---

(1) سورة ص : ٢٩ .

الأحوال الدالة دلالة ضرورية على الصدق ـ هو القائل :[1] «اعلم أنك إذا نظرت في هذه الأحوال الشريفة المختصة بالنبي ـ ﷺ ـ علمت صدقه بالضرورة ،وهي طريقة قوية ».

وهو القائل ـ أيضاً :[2] ومتى علمنا صدقه ضرورة لم يجب نصب دليل على ذلك [ولكن يجوز] لأن الاستدلال لو وجب على الضروريات لما صح علم أبداً لأن الاستدلال إن لم ينته فما لا نهاية له محال ،وإن انتهى فلا نهاية له إلا إلى الضرورة» .

بل إن ابن تيمية يصرح بأنه «لا إجماع في ذلك بل كثير من الطوائف يقولون إن صدقهم بغير المعجزات»[3] الحسية .

وقد سبق قوله: إن هناك «من لا يجعل المعجزة(الحسية) دليلا بل يجعل الدليل استواء ما يدعو إليه وصحته وسلامته من التناقض»[4] أي المعجزة المعنوية.

ثم إنه لا يصح الاحتجاج بالإجماع في ذلك، فإن الاجماع إنما يثبت بعد ثبوت النبوة والمقدمات التي يعلم بها النبوة لا يحتج عليها بالإجماع .

وقد صرح ثمامة بن الاشرس بأن[5] «النبي لا يحتاج إلى معجزة أكثر من استقامة شريعته» وهو ما ذهب إليه أيضا الإباضية وكثير من الخوارج أن نفس قول النبي أنا نبي ودعوته إلى ما يدعو إليه حجة، ولا يحتاج عليها إلى بينة وبرهان. وهو ما ذهبت إليه الكرامية أيضاً[6] وهو نفس ما سبق إيراده من كلام المرجاني والغزالي وغيرهم.

وحتى المحدثون فقد خالفوا هذا الإجتماع المزعوم. يقول العقاد:[7] «علامات الرسالة الصادقة هي: عقيدة تحتاج إليها الأمة. وهي أسباب تمهد لظهورها، وهي

---

(١) محمد بن إبراهيم الوزير : البرهان القاطع ص ٣٦ .
(٢) السابق ص ٤٦ .
(٣) ابن تيمية : النبوات ص ٣٥ .
(٤) ابن تيمية : شرح العقيدة الأصفهانية ص ٨٨ .
(٥) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٦٦ .
(٦) انظر البغدادى : أصول الدين ص ١٧٥ .
(٧) العقاد : عبقرية محمد ص ١٦ .

رجل يضطلع بأمانتها في أوانها. .فإذا تجمعت هذه العلامات. فماذا يلجئنا إلى علامة غيرها؟ وإذا تعذر عليها أن تجتمع فأي علامة غيرها تنوب عنها أو تعوض ما نقص منها؟»

«قالت حوادث الكون: لقد كانت الدنيا في حاجة إلى رسالة وقالت حقائق التاريخ: لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون، وعلامة التاريخ»[1] وهذا هو نفس اتجاه محمد عبده، ومحمد رشيد رضا وجل المحدثين .

وليس هناك نص شرعي واحد صريح على وجوب المعجزة الحسية في النبوة.

بل على العكس فينفي القرآن ضرورة وجوب المعجزة الحسية للنبوة والرسالة يقول تعالى :[2] **﴿قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلى﴾** .

ويقول تعالى :[3] **﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه. قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾** .

فالقرآن هنا ينفى الارتباط الضرورى بين المعجزة الحسية والرسالة، فالرسالة لا تشترط المعجزة الحسيه ولكن المعجزة الحسيه تشترط التأييد الإلهى الذي يكون للرسل .

ويصرح الإنجيل كذلك بنبوة يحى عليه السلام[4] ويصرح بأنه«لم يفعل آية واحدة»[5] .

وما ورد في القرآن من تأييد الله تعالى لأنبيائه بالآيات والبينات والبراهين

---

(١) السابق ص ١٨ .
(٢) الأنعام : (٥٠) .
(٣) الإسراء : (٩٠ : ٩٣)
(٤) انظر لوقا : ٧ / ٢٦ .
(٥) يوحنا : ١٠ / ٤١ .

إلخ فليس ذلك نصا على ضرورة المعجزة الحسية في النبوة، لأن المعجزات المعنوية هي أيضا آيات وبينات وبراهين طالما أن دلالتها ضرورية .

وحديث «ما من الأنبياء نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله عز وجل إلي وأرجو أن أكون أكثرهم تبعا يوم القيامة»[1] .

فليس نصا على المعجزة الحسية، فالآية هي العلامة، وقرائن الأحوال علامات

ثالثا: من حيث نوعية المخاطبين :

- يقول المسيح : طوبى للذين آمنوا ولم يروا [2]

ويرى ابن تيمية أن المعجزة المعنوية طاعة الخلق بها أعم وأكثر، والمطيع بها خيار بني آدم عقلا ودينا، وأما المعجزة الحسية فلا يدخل فيها إلا جهال الناس ممن لا عقل له ولا دين [3].

ويقول القاسمي:[4] «فأما الحسي فيشترك في إدراكه العامة والخاصة، وهو أوقع عند طبقات العامة، وآخذ بمجامع قلوبهم وأسرع لإدراكهم. . . وأما العقلي فيختص بإدراكه كملة الخواص من ذوي العقول الراجحة والأفهام الثاقبة. . . » .

وعبارة القاسمي غاية في الدقة، فقد جعل المعجزة الحسية يشترك في إدراكها العامة والخاصة، إلا أنها أوقع عند العامة، فهو لم ينف أثرها على الخاصة .

فها هو «إبراهيم» - عليه السلام - يقول فيما يحكيه القرآن ﴿ربي أرني كيف تحي الموتى﴾(٥) ويقول ﴿ليطمئن قلبي﴾ وإبراهيم عليه السلام من الخواص، وليس من العوام .

وقوله تعالى له: ﴿أو لم تؤمن قال بلى﴾ يدل على أن الفارق هنا بين العوام والخواص أن إيمان العوم مبني على المعجزة الحسية أما الخواص فالمعجزة الحسية تؤكد إيمانهم - المبني على الإعجاز المعنوي .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في الباب الأول من كتاب فضائل القرآن والباب الأول من كتاب الاعتصام ومسلم في صحيحه برقم (٢٣٩) من كتاب الإيمان وأحمد في المسند جـ٢ ص ٣٤١ ، ٤٥١ .

(٢) يوحنا : ٢٠ : ٢٩ (٣) انظر ابن تيميه : قاعدة شريفة ص ٣٣ .

(٤) القاسمي : دلائل التوحيد ص ١٥٨ .

(٥) البقرة : ٢٦٠ .

وهو ما حدث مع رسولنا ـ ﷺ ـ فيما رواه الإمام أحمد عن أنس: قال: جاء جبريل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ذات يوم. وهو جالس حزين قد خضب بالدماء من ضرب بعض أهل مكة قال: فقال له: مالك؟ فقال: فعل بي هؤلاء وفعلوا فقال له جبريل: أتحب أن أريك آية؟ قال: فقال. نعم قال: فنظر إلى شجرة من وراء الوادي فقال: ادع تلك الشجرة فدعاها، قال: فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه فقال: مرها فلترجع. فأمرها فرجعت إلى مكانها فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: حسبي[1].

فإيمانه ـ ﷺ ـ لم يؤسس علي المعجزة الحسية ولكنها عندما عرضت عليه ـ ﷺ ـ قبلها، فهو ـ ﷺ ـ آمن وصدق قبل هذه المعجزة ونفس الشيء يقال عن الإسراء والمعراج لا سيما المعراج، فهو معجزة حسية خاصة به ﷺ ـ ولم يرها أحد من المكلفين غيره ونفس الشيء يقال عن موسى عليه السلام فأراه الله تعالى معجزتي العصا واليد البيضاء منفرداً. ولكن إيمان موسى لم يكن مؤسسا عليهما لأنه سمع خطابه تعالى ـ الذي ليس كمثله شيء ـ من قبل وليس بعد كلام الله تعالى ومناجاته يحتاج المرء إلى معجزة حسية ليؤسس إيمانه، بل قد يحتاجها ليزيده، والإيمان يزيد.

وقوله ـ ﷺ ـ بعد فعله بعضا من معجزاته «أشهد أني رسول الله»[2] فهو من هذا الباب لأنه كان قد آمن من قبل ذلك بوقت طويل كما توضح كتب السير.

ولما تقدمت البشرية وارتقت ونضجت فكريا وحان ميعاد بعث النبي الخاتم جعل الله تعالى معجزته ﷺ الكبرى هي القرآن الكريم وهي معجزة معنوية حسية[3] وحثنا القرآن الكريم، وكذا حثت السنة النبوية على النظر في المعجزة

---

(١) رواه ابن ماجة في سننه في الباب (٢٣) من كتاب الفتن والدارمي في سننه في الباب (٤) من المقدمة وأحمد في المسند جـ ٣ ص ١١٣.

(٢) ابن حزم الفصل جـ ٥ ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٣) انظر مفهوم المعجزة الحسية والمعجزة المعنوية من الباب الثالث ويلاحظ أنه لما كان الوعي البشري في اطواره الأولى ملتصقا بالطبيعة حتى كاد لا يتميز عنها كان من حكمة الله تعالى أن جعل إطار المعجزة في اليهودية هو عالم الطبيعة الكبير(إنفلاق البحر مثلا) ولما بدا قدر من التمايز عن الطبيعة في الوعي الإنساني في المسيحيه إذا تعكس مسيره الوعي توجها من(الخارج) إلى(الداخل) كان من حكمته تعالى أن تحول إطار تحقق المعجزة من عالم الخلق الأكبر إلى عالم الخلق الأصغر(الإنسان) فأصبح الإنسان بما هو ذات تؤمن وليس بما هو طبيعه تخرق هو إطار تحقق المعجزة(إحياء الموتى، شفاء المرضى) فبدا بذلك وكأن تمايز الوعي عن الطبيعة يعكس أيضا تمايزا للمعجزة عنها وأخيرا فإن تمام الوعي بالذات في الإسلام قد انعكس في إنبثاق ضرب من الإعجاز العقلي ـ وهو القرآن الكريم وإن لم ينفصل إنفصالاً تاما عن أدنى درجات المعجزة التي تتوافق مع أدنى درجات الوعي مراعاة لاختلاف أحوال المخاطبين بالمعجزة(كانشقاق القمر). ومن هنا فإن التفاوت بين معجزات الأنبياء لا يرتبط =

المعنوية أكثر مما حثنا على النظر في المعجزات الحسية .

وكيف لا ! والبشرية قد ارتقت ونضج عقلها .

وكيف لا ! والنبوة قد ختمت والمعجزة الحسية محصورة ـ غالبا ـ بحاجزي المكان والزمان ولا تخترقهما إلا بالتواتر .

نعم نحن قد نكون في حاجة إلى التواتر أيضاً في المعجزة المعنوية، وذلك في معرفة حال الداعي، ولكننا لسنا في حاجة ماسة إلى التواتر لمعرفة قيمة الدعوة فذلك أمر بين بنفسه إذا توافقت الدعوة مع الفطرةالإنسانية ومع الواقع الإنساني .

كما أنه بمعرفة قيمة الدعوة يمكن استنتاج حال الداعي .

وإذا كان العلماء ورثة الأنبياء. فلا قدرة للعلماء على الإتيان بالمعجزات الحسية، وإنما لهم القدرة على الكشف عن المعجزات المعنوية .

وبالرغم من ذلك فقد أيد الله تعالى من رحمته نبيه ـ ﷺ ـ بكثير من المعجزات الحسية من تكثير الطعام، ونبع الماء من بين أصابعه، وانشقاق القمر. .إلخ وذكر تعالى بعضها في كتابه العزيز فتواترت هذه المعجزات الحسية وقامت بها الحجة .

وإذا كان عصر المعجزات قد انتهى فإن رحمة الله الواسعة أبقت الكرامة للأولياء خارقا حسيا دالاً على صدق النبي، فهي لم تحدث إلا لمتابعة الأولياء للأنبياء .

يقول ابن تيمية:[1] «وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسوله ـ فهى في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول » .

إلا أنها بقيت دليلا شخصيا لا يعرفها إلا الولي نفسه فقلما تحدث علنا، وقلما يتعمد الولي إظهارها .

يقول ابن عربي:[2] «فإذا ظهر عليه(أي الولي) شيء من كرامات العامة(يعني

= فقط بأن معجزات كل نبي كانت من جنس ما تفوق فيه قومه بل يرتبط ـ وهو الأهم ـ بما بين أطوار المعجزة من جهة وبين أطوار الوعي من جهة أخرى من توافق بنيوي ثابت .

انظر علي مبروك : النبوة من علم العقائد إلى فلسفه التاريخ ص ٢٠٢ : ٢٠٣ .

(١) ابن تيمية : الفرقان ص ١٢٩ .

(٢) ابن عربى : الفتوحات المكية جـ ٢ ص ٣٦٩ .

الخوارق الحسية) ضج إلى الله منها وسأل الله ستره. . . وأن لا يتميز عن العامة بأمر يشار إليه فيه ما عدا العلم . . .

فأسنى ما أكرمهم به من الكرامات العلم خاصة، لأن الدنيا موطنه، وأما غير ذلك من خرق العادات فليست الدنيا بموطن لها» .

ويشرح ابن عربي بعد ذلك ما يقصده «بالعلم» فيقول [1] «ولا اعني بالعلم إلا العلم بالله والدار الآخرة، وما تستحقه الدار الدنيا، وما خلقت له ولأي شيء وضعت، حتى يكون الإنسان من أمره على بصيرة حيث كان» .

وبفرض حدوث الكرامة علنا. فلا يعرف أنها كرامة ويميزها عن غيرها من الخوارق إلا قليل.

نعم. هناك قرائن الصدق التي تدل على ولاية الولي وتفرقه عن الكذاب والمدعي للولاية، ولكن الكرامة ليست هي كل خارق يحدث على يد الولي الصادق، فقد يكون ذلك اختبارا من الله تعالى لوليه، وقد يكون ذلك من عمل الشياطين يفتنون به أولياء الله، كما يذكر ذلك ابن تيمية في قوله «وكثير من هؤلاء قد لا يعرف أن ذلك من الجن، بل قد سمع أن أولياء الله لهم كرامات وخوارق للعادات، وليس عندهم من حقائق الإيمان ومعرفة القرآن ما يفرق به بين الكرامات الرحمانية وبين التلبيسات الشيطانية فيمكرون به» [2] .

ولذلك يقول ابن عربي: [3] «ولا يصح كون ذلك كرامة إلا بتعريف إلهي لا بمجرد خرق العادة» .

وحاصل ذلك أن المعجزات الحسية :

١ ـ يدركها المتخصصون المدققون كل في مجاله كسحرة فرعون ومعجزة موسى عليه السلام في قلب العصا حية، والقرآن الكريم (المعجزة الخالدة) تدرك كل فئة من المتخصصين ما لا تدركه غيرها ـ إلا على وجه الإجمال ـ من وجوه

---

(١) السابق جـ ٢ ص ٣٧٠ .

(٢) ابن تيمية : الفرقان ص ١٥٩ .

(٣) ابن عربى : الفتوحات المكية جـ ٢ ص ٣٦٩ .

عجازه هذا بالطبع إلى جوار إعجازه العام الذي يدركه الجميع وهو الاطمئنان النفسي وهو الذي عبر عنه الوليد بن المغيرة بقوله «إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه. مغدق أسفله، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى عليه» .

٢ ـ ينبهر بها العوام ويؤسسون عليها إيمانهم .

٣ ـ ويبقى بين هؤلاء وهؤلاء طبقة كبيرة دون الفهم ودون الانبهار لم يبهروا ولم يفهموا ، فهم لا يؤمنون بالمعجزات الحسية إلا بمتابعة المتخصصين ويكون خطابهم بالمعجزات الهدائية، فالمعجزات الهدائية تؤسس إيمانهم ، والمعجزة الحسية تزيد إيمانهم .

رابعا : من حيث طلب الأنبياء للمعجزات :

إن الأمر المعجز إذا ظهر للجماعة منهم من يؤمن عند ذلك ومنهم من يعرفه ويجحده ولا يظهر التصديق به ظلما وعلوا وحسداً، ومنهم من يلحق ذلك بالسحر والإيهام، فلما رأت الرسل ذلك وأنه لا يؤمن إلا من أنار الله قلبه بنور الإيمان فقصرت الهمم عن طلب الأمور المعجزة .

ـ يقول تعالى ﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ (١) .

ـ ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون. وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا﴾ (٢) .

ـ ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه. قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أو لم يكفيهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾ (٣) .

ـ ﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾ (٤) .

ـ ﴿واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها، قل إنما الآيات عند

---

(١) يونس : ١٠١ .
(٢) الإسراء : ٥٩ .
(٣) العنكبوت : ٥٠ ، ٥١ .
(٤) الرعد : ٧ .

الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة و نذرهم في طغيانهم يعمهون ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾ (١) .

- ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين﴾ (٢) .

- ﴿وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾ (٣) .

- ﴿ولئن آتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾ (٤) .

- ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ (٥) .

- ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾ (٦) .

- ﴿ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾ (٧) .

- ﴿ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾ (٨) .

- ﴿ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى﴾ (٩) .

- ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين﴾ (١٠) .

---

(١) الأنعام : ١٠٩ ، ١١١ .
(٢) النمل : ١٣ .
(٣) الأعراف : ١٣٢ .
(٤) البقرة : ١٤٥ .
(٥) يونس : ٩٦ .
(٦) الأنعام : ١١١ .
(٧) الأنعام : ٧ .
(٨) الحجر : ١٤ ، ١٥ .
(٩) طه : ٥٦ .
(١٠) آل عمران : ١٨٣ .

- ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا،أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا،أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه.قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا﴾[1] .

فالمعجزة الأولى التي طلبوها: أن يفجر لهم من الأرض ينبوعا وقد نسوا أن الحق تعالى أعطى لموسى عليه السلام أكثر من ذلك فكان يضرب بعصاه الحجر فتنفجر منه العيون وإذا بقومه يعبدون العجل رغم كل المعجزات التي رأوها. والمعجزة الثانية التي طلبوها(أن تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا) وقد أعطانا الله سبحانه وتعالى في سورة الكهف قصة ذلك العبد صاحب الجنتين،الذي آتت جنتيه ثمارهما وفجرت الأنهار خلالهما. . ومع ذلك بدلاً من أن تزيده هذه النعمة خشوعا لله قادته إلى الكفر قال تعالى[2] ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا﴾. أما الآية الثالثة: (أن تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) ولو أن السماء سقطت عليهم كسفا ما عاش منهم أحد ليؤمن، والمعجزة الرابعة التي طلبوها: (أن تأتي بالله والملائكة قبيلا) وهم يعرفون أنهم يوم يرون الملائكة لا ينفع نفسا إيمانها. قال تعالى:[3] ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك.يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً.قل انتظروا إنا منتظرون﴾. والمعجزة الخامسة (أو يكون لك بيت من زخرف) والدنيا موقوته. . والنعيم الحقيقي في الآخرة. وقد عرض على الرسول - ﷺ - أن تجعل له جبال مكة ذهبا، فأبى ثم يطلبوا منه بعد ذلك أن يرقى إلى السماء وأن يأتيهم بكتاب يقرأونه. . ونسوا أن رسول الله - ﷺ - قد أسري به إلى السماء العليا، . . وقد

---

(١) الإسراء: ٩٠، ٩٣.

(٢) الكهف: ٣٥، ٣٦.

(٣) الأنعام: ١٥٨.

طلبوا كتابا من السماء والقرآن بين أيديهم نزل من السماء. .ولو أن الله سبحانه أراد أن ينزل إليهم كتابا من السماء. .فلابد أن ينزله بلغتهم وإلا لما عرفوه. .وما استطاعوا أن يفهموه. . فالقرآن نزل بلغتهم لغة العرب حتى يستطيعوا أن يقرأوه وأن يفهموه وأن ينفذوا تعاليمه[١] .

إلا أنه يمكن فهم قوله تعالى ﴿**وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون**﴾[٢] على أن الآيات هنا المراد بها الآيات المشترطة على سبيل العناد والتعنت لا كما يدعي سيد قطب وغيره من أنها الآيات على الإطلاق [٣] .

لأن الرسول ـ ﷺ ـ وإن لم يستجب لهم ويفجر لهم من الأرض ينبوعا عند التحدي إلا أنه فعل ما هو أعظم بدون تحد من أحد له، فتفجر الماء من بين أصابعه الشريفة [٤] فهو ـ ﷺ ـ لم يستجب لهم في طلبهم لأنه كان على علم من أن طلبهم حينئذ لم يكن إلا للسخرية والاستهزاء ومن ثم فمهما يروا من المعجزات فسيأولونها .

«وقد قال المنافقون وقد رأوا بأعينهم سحابة واحدة في إبّان القيظ قد مطرت عسكر المؤمنين وحده عند دعاء النبى ـ ﷺ ـ :إن ذلك إنما كان بتأثير النوء لا بدعائه»[٥] .

وقال اليهود في المسيح: «إن معه بَعْلَزَبُول وإنه برئيس الشياطين يخرج الشياطين» [٦] .

وورد في الكتاب المقدس«إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء، ولا إن قام واحد من الأموات يصدقون» [٧] .

---

(١) انظر الشعراوي : معجزات الرسول ١٠٠ ، ١٠٦ . (٢) الإسراء : ٥٩ .

(٣) يقول سيد قطب :«إن الرسول ﷺ لم يرسل بخوارق من نوع الخوارق التى جاءت مع الرسل قبله....لما كان من تكذيب الأولين بها» فى ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣٤٢٧ .

وانظر . Gibb and kramers:Shorter Encyclopaedia of Islam, p.389

Mircea Eliade: The Encyclopedia of Religion ,Vol . 9 . p . 546 .

(٤) رواه البخارى فى صحيحه فى الباب(٣١) من كتاب الأشربة والنسائى فى سننه فى الباب(٦٥) من كتاب الطهارة،وأحمد فى المسند جـ ١ ص ٤٠٢ . (٥) محمد رشيد رضا:الوحى المحمدى ص٣٧.

(٦) مرقس الأصحاح (٣) آية (٢٢) وانظر كذلك«لوقا»الأصحاح (١١) آية (١٥) .

(٧) «لوقا» الأصحاح (١٦) آية (٣١) .

بل جاء في الأناجيل من سيرة المسيح عليه السلام أن الكهنة عجلوا بسعيهم لإهلاك السيد المسيح حين علموا بآياته وأشفقوا أن تقود الناس إلى الإيمان برسالته. فدعاهم إلى الكيد له ما كان أحرى أن يدعوهم إلى الاستماع له أو الصبر عليه.

ففي إنجيل يوحنا «فجمع رؤساء الهكنة والفريسيون مجمعا وقالوا ماذا نصنع فإن هذا الإنسان يعمل آيات كثيرة وإن تركناه هكذا يؤمن الجميع به فيأتي الرومانيون، ويأخذون موضعنا وأمتنا فقال لهم واحد منهم وهو قيافا. كان رئيسا للكهنة فى تلك السنة: أنتم لستم تعرفون شيئا ولا تفكرون أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها»[1].

وكذا كانت نصيحة إبليس للمشركين عند اجتماعهم للكيد للرسول - ﷺ - وقول بعضهم «نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فإن خرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع... (فقال لهم إبليس): لا والله ما هذا لكم برأي ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطاكم بهم»[2].

ومن ثم فنلاحظ أن كثيرا من معجزات الأنبياء الحسية كانت معجزات رحمة من الله وعناية منه برسوله والمؤمنين[3].

كإنزال الملائكة في غزوة بدر وتسخير الله السحاب لإسقاء المسلمين وتثبيت أقدامهم التي كانت تسيخ فى الرمل يقول تعالى: ﴿**فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين**﴾[4].

وفي غزوة تبوك عندما نفد ماء الجيش قال أبو بكر: «يا رسول الله إن الله عودك في الدعاء خيراً فادع لنا، فرفع يديه فدعا، فلم يرجعهما حتى كانت السماء سكبت لهم ما ملئوا به ما معهم من الروايا ولم تتجاوز عسكرهم»[5].

---

(١) يوحنا الأصحاح (١١) آية (٤٧ : ٥٠). (٢) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٧٤.

(٣) وهذا لا يعنى أنها لم تكن حجة كما يزعم سيد قطب فى قوله «فأما ما وقع فعلا للرسول ﷺ من خوارق شهدت بها روايا صحيحه فكان إكراما من الله لعبده لا دليلا لإثبات رسالته» انظر سيد قطب: فى ظلال القرآن جـ٦ ص٣٤٢٧. (٤) الأنفال: ٩. (٥) رواه ابن جرير وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى فى كتابيهما «دلائل النبوة» والضياء فى الأحاديث المختارة.

وإن كان ـ ﷺ ـ وأهل بيته وأصحابه يصبرون على المرض والجوع والعطش ولا يدعو لهم ـ ﷺ ـ بما يزيل ذلك إلا نادراً .

«وقد سألته المرأة التي كانت تصرع أن يدعو الله لها بالشفاء فأرشدها إلى أن الصبر على مصيبتها خير لها فشكت إليه أنها تنكشف عند النوبة وسألته أن يدعو لها ألا تنكشف، فدعا لها واستجاب الله دعاءه»[1] .

فالمعجزة الكبرى هي: مجموعة القرائن والمعجزات التي يقوي بعضها بعضا حتى تولد العلم الضروري .

والقرينة الواحدة والمعجزة الحسية الواحدة قد يتحقق فيها معنى الإعجاز ويستقل في حق بعض الناس لا كلهم وذلك متوقف على طبيعة القرينة أو المعجزة وطبيعة الشخص .

إلا أن المعجزة الحسية بالرغم من ذلك لابد وأن تكون حجة في ذاتها بمعنى أنها تختلف عن الخوارق التي تحدث على يد غير الأنبياء فهي وإن كانت متميزة، وإن كانت علامة حقيقية إلا أن فهمهما وإدراكها هو الذي يختلف حسب البيئات والأشخاص، وذلك كالحال في أفراد التواتر فكل فرد وإن كان عدلا ثقة إلا أن البعض يمكن أن ينكر هذه العدالة فيه لجهله بوجودها فخبره ليس ببرهان للجميع وإن كان برهانا عند بعضهم ممن خبره وعرفه جيداً .

ولا يعني ذلك أن المعجزة المعنوية هي الضامنة للإيمان فها هو«تولستوي» في كتابه المترجم باسم«حكم النبي محمد» وميكل هارت في كتابه المترجم باسم«الخالدون مائة أعظمهم محمد» ـ ﷺ ـ وغيرهم كثيرون[2] أشادوا بالرسول ـ ﷺ ـ وبدعوته ومع ذلك أرجعوا كل ذلك إلى العظمة والعبقرية الشخصية لا إلى النبوة .

وها هو القرآن مع كونه في رأس معجزات الهداية ما آمن به إلا من شرح

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه فى الباب(٥) من كتاب المرضى ومسلم برقم (٥٤) من كتاب البر،وأحمد جـ١ ص ٣٤٧ .

(٢) كبرناردشو ، ولامارتين ، وجان جاك رسّو وغيرهم .

الله صدره للإسلام فمسألة الهداية بيد الله، فهو يهدي من يشاء ويضل من يشاء ويهدي من يهديه إذا شاء من غير معجزة ومن غير نبي .

وإنما كان الفرق بين المعجزة المعنوية والمعجزة الحسية هنا أن المعجزة المعنوية كانت هي مجموعة القرائن الدالة دلالة ضرورية على الصدق. وتعود إلى نفس الصفة التي سمي بها النبي نبيا بعكس المعجزة الحسية التي كانت حادثة منفردة نسبية الدلالة وإن كانت بينة في نفسها إلا أنها لا تستقل في دلالتها عن المعجزة المعنوية وتجري مجرى برهان الإن لا برهان اللم كالمعجزة المعنوية ثم إنها محصورة - غالبا - بحاجزى الزمان والمكان .

ويؤكد ما سبق قول ابن تيمية:[1] «وأنفع الخوارق الخارق الدني... ثم بعده الخارق المؤيد للدين المعين له» .

وكذلك قوله:[2] «الدين الصحيح أوجب لطاعة النفوس وحصول الرياسة من الخارق المجرد كما هو الواقع فإنه لا نسبة لطاعة من أطيع لدينه إلى طاعة من أطيع لتأثيره إذ طاعة الأول أعم وأكثر، والمطيع بها خيار بني آدم عقلا وديناً، وأما الثانية، فلا تدوم ولا تكثر ولا يدخل فيها إلا جهال الناس كأصحاب مسيلمة الكذاب وطليحة الأسدي ونحوهم، وأهل البوادي والجبال ونحوهم ممن لا عقل له ولا دين» .

هذا بالإضافة إلى أنه كان من الأسباب التي أدت إلى عدم طلب الأنبياء المعجزة الحسية .

أنه كان من سننه تعالى في كونه أنه إذا استجاب لرسوله في طلب المعجزات الحسية، وبعد ذلك لم يؤمن قومه فإن الله يهلكهم .

والأنبياء رحماء بأقوامهم لأنهم وإن لم يؤمنوا فعسى أن يخرج من أصلابهم من يؤمن بدين الله ويحارب في سبيل الله .

يقول تعالى[3] ﴿إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن

---

(١) ابن تيمية : قاعدة شريفة ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) السابق ص ٣٣ . (٣) المائدة : ١١٢ ، ١١٥ .

ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين. قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحداً من العالمين﴾ .

وروى عنه ـ ﷺ أنه قال لما مر بالحجر[1] «لا تسألوا الآيات وقد سألها قوم صالح فكانت(الناقة) ترد من هذا الفج وتصدر من هذ الفج فعتوا عن أمر ربهم. فعقروها، فكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما، فعقروها فأخذهم صحية أهمد الله عز وجل من تحت أديم السماء منهم إلا رجلا واحداً كان في حرم الله عز وجل قيل من هو يا رسول الله قال هو أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه» .

خامسا: من حيث ترتيب الأنبياء الزمني للمعجزة الحسية والمعنوية :

بتأمل أحوال الأنبياء ومعجزاتهم نلاحظ أن الأنبياء عليهم السلام لم يبدأوا أقوامهم بالمعجزات الحسية، ولكن بدأوهم بالمعجزات المعنوية«فإن الحوار شيء يختلف عن المعجزة في مخاطبة العقل، فالنبى يظهر المعجزة الحسية التي منحه الله إياها عندما يجد أن عقول المنكرين ترفض الأدلة العقلية والبراهين الدامغة فتكون المعجزة الحسية قاهرة للعقل لأنها على خلاف المألوف وخرقا للنواميس لذا لا يجد العقل أمامه ترتيب أسباب ومسببات . . .

إن الله لم يطلب منهم إلغاء عقولهم ولكنه طلب منهم أن يتدبروا ويفكروا ليصلوا إلى الحق، فلما رفضوا لغة التفكير أعجزهم الله بالآيات والنذر»[2] .

فرسولنا ـ ﷺ ـ بدأ دعوته بقرائن المعجزة المعنوية. فاستدل على صدقه بمعرفة قومه لصدقه، فقد روى البخاري ومسلم والترمذي عن ابن عباس قال: «لما نزلت﴿وانذر عشيرتك الأقربين﴾[3] صعد النبي ـ ﷺ ـ على الصفا، فجعل ينادي

---

(١) رواه أحمد فى مسنده جـ ٣ ص ٢٩٦ .

(٢) محمد الصابم : قيمة العقل فى الإسلام ص٦٦ .

(٣) الشعراء : ٢١٤ .

يابنى فهر يابنى عـدي لبطون قريش حتى اجتمعوا فـجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر مـا هو فجاء أبو لهب وقريش فقـال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مـصدقيّ، قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقا قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[1] .

فاكتـفى - ﷺ - حينئذ بذكر مـعرفتهم لصـدقه وأمانته عن الإتيـان بمعجزة حسية، ثم توالت بعد ذلك معجزاته - ﷺ - الحسية .

«وموسى بن عـمران لما جاء إلى مصـر فقال لهارون وغـيره إن الله أرسلنى علموا صدقة قبل أن يظهر لهم الآيات ولما قال لهارون إن الله قد أمرك أن تؤازرنى صدقـه هارون في هذا لما يعلم من حاله قـديما ولما يرى من تغيـر حاله الدال على صدقه»[2] .

وفي الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام وفرعون بدأ موسى عليه السلام بقرائن المعجزة المعنوية .

قال تعالى:[3] ﴿قال فرعـون وما رب العالمين، قال رب الـسموات والأرض وما بـينهمـا إن كنتم موقنين قـال لمن حوله ألا تستـمعون قـال ربكم ورب آبائكم الأولين قال إن رسـولكم الذي أرسل اليكم لمجنون قـال رب المشرق والمغـرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾ .

فلما قامت الحجج على فرعون وانقطعت شبهه، ولم يبق له قول سوى العناد عدل إلى استعمال القوة .

﴿قـال لئن اتخذت إلـهـا غيـرى لأجـعلنك من المسجـونين﴾[4] ولما أحـس موسى عليه السلام عـدم خضوع فرعون لمنطق العقل ولجأ لمنطق القـوة والقهر لجأ هو أيضا لهذا المنطق ولكـن باستخدام المعجزات الحـسية ﴿قال أو لو جـئتك بشىء مبين قال فأت به إن كنت من الصادقين فالقى عـصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾[5] .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه فى الباب الثانى من تفسير سورة الشعراء وفى الباب الثانى من تفسير سورة سبإ وفى الباب الأول والثانى من تفسير سورة المسد ورواه الترمذى فى سننه فى تفسير سورة المسد ورواه أحمد فى المسند جـ ١ ص ٢٨١، ٣٧٤ جـ ٣ ص ٤٧٦ جـ ٥ ص ٦٠ . (٢) ابن تيمية : النبوات ص ٢٤٤.
(٣) الشعراء : ٢٣، ٢٨ . (٤) الشعراء : ٢٩ . (٥) الشعراء : ٣٠ .

ولما تقدم موسى عليه السلام للسحرة بدأ بقرائن المعجزة المعنوية ﴿قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى﴾ (١).

«قيل: معناه أنهم اختلفوا فيما بينهم فقائل يقول: هذا كلام نبي وليس بساحر وقائل منهم يقول: بل هو ساحر»(٢).

ولم أحس موسى أنهم لا يستمعون لمنطق العقل و﴿قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكما المثلى﴾(٣).

لجأ هو أيضا إلى منطق المعجزة الحسية ﴿فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾ (٤).

وصالح عليه السلام بدأ دعوته بقرائن المعجزة المعنوية فدليل صدقه أنه رسول أمين وأنه لا يطلب أجرا وأنه جاء يدعو إلى الهداية التي لا تنكرها الفطر السليمة، والعقول الصحيحة فكذبوه وطلبوا منه آية فجاء لهم بالناقة يقول تعالى: (٥) ﴿كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إني لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتتركون في ما ها هنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون. قالوا إنما أنت من المسحرين، ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾.

«وقد ذكر المفسرون أن ثمودا اجتمعوا يوما في ناديهم فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله وذكرهم ووعظهم وأمرهم فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة وأشاروا إلى صخرة هناك ناقة من صفتها كيت وكيت وذكروا

---

(١) طه: ٦١ - ٦٢. (٢) ابن كثير: قصص الأنبياء ص ٢٨٦.
وانظر كذلك القرطبي: الجامع لأحكام القرآن جـ ٥ ص ٤٢٥٥.
(٣) طه: ٦٣. (٤) الشعراء: ٤٥.
(٥) الشعراء: ١٤١، ١٥٥.

أوصافا سموها وتعنتوا فيها وأن تكون عشراء طويلة من صفتها كذا وكذا، فقال لهم النبي صالح - عليه السلام -: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به ؟ قالوا: نعم فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك .

ثم قام إلى مصلاه فصلى لله عز وجل ما قدر له ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة على الوجه المطلوب الذي طلبوا و على الصفة التي نعتوا فلما عاينوها كذلك رأوا أمرا عظيما ومنظرا هائلا، وقدرة باهرة ودليلا قاطعا وبرهانا ساطعا فآمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم»[1] .

سادسا : من حيث البعد الزمني لهما :

فالمعجزة الحسية محصورة بحاجزي المكان والزمان لا يراها إلا عدد محدود من الناس بعكس المعجزة المعنوية فهي تكسر حاجزي الزمان والمكان وتتخطاهما .

صحيح أن المعجزة الحسية قد تتخطى حاجزي الزمان والمكان بالتوتر إلا أن التواتر لا تتوافر شروطه دائما في كل المعجزات الحسية وحتى لو توافرت فليس من رأى كمن سمع .

وها هو إبراهيم عليه السلام يطلب من الله أن يريه كيف يحى الموتى بالرغم من إيمانه وكونه خليل الرحمن وذلك ليتحول إيمانه من علم اليقين إلى عين اليقين.

أما المعجزة المعنوية فلا حاجة لها إلى التواتر بنفس هذه الدرجة وخاصة ما يرجع منها إلى موضوع الدعوة يقول الباقلاني:(٢) «وفيه أيضا [أي القرآن] من عظم الشأن ما ليس في غيره من آيات الرسل، وهو بقاؤه تحديا أبداً للمخالفين في نبوته عليه السلام، في الإتيان بمثله وعجزهم عن ذلك .

فهي آية باقية حاضرة لا يحتاج في العلم بوجودها إلى إخبار المخبرين ونقل

---

(١) ابن كثير : قصص الأنبياء ص ١١٣ .

(٢) الباقلاني : البيان ص ٣١ ، ٣٢ .

الناقلين الذين ربما ظن بهم الكذب. . . .ووضع مالا أصل له . . . .ووجود القرآن وحضوره يغني عن نقل له ودليل عليه» .

ويقول القاسمي:[1] «كتاب الله العزيز. . .لم يكن كونه خارقا من طريق السماع كانقلاب العصا حيه وإنما ثبت كونه معجزا بطريق الحس والاعتبار لكل إنسان وجد ويوجد إلى يوم القيامة، وبهذا فاقت هذه المعجزة سائر المعجزات» .

إلا أن المعجزة الحسية قد تتخطى حاجز الزمان في أحوال قليلة. كما هو الحال في .

ـ القرآن الكريم وهو معجزة حسية معنوية .

ـ آثار قدم إبراهيم عليه السلام التي يقول تعالى عنها ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ [2] .

ـ كرامات الأولياء و«هي من آيات الأنبياء فإنها مختصة بمن شهد لهم بالرسالة وكل ما استلزم صدق الشهادة بنبوتهم فهودليل على صدق هذه الشهادة سواء كان الشاهد بنبوتهم المخبر بها هم أو غيرهم بل غيرهم إذا أخبر بنبوتهم وأظهر الله على يديه ما يدل على صدق هذا الخبر كان هذا أبلغ في الدلالة على صدقهم من أن يظهر على أيديهم»[3] .

---

(١) القاسمي : دلائل التوحيد ص ١٥٤ .

(٢) آل عمران : ٩٧ .

(٣) ابن تيمية : النبوات ص ١٤٢ .

الفصل الثاني

تقسيمات أخرى للمعجزات

obeikandl.com

١ ـ من حيث درجة الخارقية :

فمعجزات الأنبياء متفاوتة الإعجاز فمنها صغار وكبار وإن كانت متساوية الأحكام في ثبوت الإعجاز، وتصديق مظهرها على ما ادعاه من النبوة .

فمنها ما لا يكون لغيرهم، ومنها ما يشابه ما لا يكون لغيرهم من الأولياء ، ومنها ما يماثل ما يكون للأولياء ومنها ما يشابه ما يكون للروحانيين في أي دين كصوفية الهنود ورهبان النصارى بل إن بعضا مما يحسب أنه خوارق حقيقية ليس بخارق حقيقي ولكنه معونة منه تعالى وربما وجد بسنة إلهية طبعية [١] .

ولا يسمى شيء من تلك الخوارق «معجزة» إلا ما كان خاصا بالأنبياء عليهم السلام .

ولا يستثنى من ذلك إلا ما شاركهم فيه الأولياء فإذا حدث على يد النبي سمي معجزة وإذا حدث على يد الولي سمي كرامة وإنما كان ذلك كذلك لأن كرامات الأولياء معجزات لأنبيائهم كما يقول ابن تيمية لأنها كانت لهم بفضل اتباعهم الأنبياء[٢] .

٢ ـ من حيث الإتيان بغير المعتاد أو المنع من المعتاد :

وقد سبق تناول ذلك تفصيليا في حديثنا عن شروط المعجزة .

٣ ـ من حيث كونها معجزات هداية أو رحمة أو إكرام أو إنذار أو سخط :

ـ ومعجزات الهداية مثل القرآن وتكون قبل الإيمان لأنها برهانه .

ـ ومعجزات الرحمة والنعمة مثل إنزال الملائكة لمعونة المؤمنين في الحرب أو في غيرها، ومثل تكثير الطعام ونبعان الماء وقت الحاجة .

ـ ومعجزات الإكرام مثل الإسراء والمعراج وتكون للمؤمنين إكراما لهم [٣].

---

(١) انظر مبحث نسبية الدلالة في الفصل الخامس من الباب الرابع .

(٢) انظر ابن تيمية : الفرقان ص ١٢٩ والنبوات ص ١٤٢ .

(٣) وما يروي عن عيسى عليه السلام في العهد الجديد مثل قوله «لا تخف آمن فقط فإنها تشفى» لوقا ٨ : ٥٠ وقوله «اذهب إيمانك قد شفاك» مرقس ١٠ : ٥٢ . وقوله «إن آمنت ترين مجد الله» يوحنا ١١ : ٤٠ . وقريب من ذلك كما في مرقس ٩ : ٢٣ ، ومتي ٩ : ٢٧ ـ ٣٠ ، ١٥ : ٢١ ـ ٢٨ ليس هو طلب الإيمان قبل المعجزة وإنما هو طلب الإقرار بالإيمان الذي قد يحول دونه الكبر والطمع ممن يعرف صدقه عليه السلام جيداً بدليل =

- ومعجزات الإنذار مثل نتق الجبل فوق بنى إسرائيل كما يقول تعالى[1] ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ .

- ومعجزات سخط ونقمة كطوفان نوح عليه السلام .

ولا تعني هذه التقسيمات وجود حدود فاصلة بينها فالمعجزة الواحدة لابد أن لها أكثر من وجه إلا أنه قد يكون أحد هذه الأوجه هو الأظهر في دلالتها .

فمعجزات الهداية مثلا هي أيضا رحمة ونعمة وإكرام وهي إنذار للمخالفين لأنها أتت من عند القادر على كل شيء وعلى إهلاك الكفرة والفاسقين .

ومعجزات السخط والنقمة مثلا هي أيضا معجزات هداية وفي نفس الوقت إنذار وذلك للأقوام التالية للأمم المهلكة .

يقول تعالى[2] ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾ وهكذا الحال في بقية المعجزات .

٤ - من حيث كونها تدخل تحت تأثير النفساني في النفساني أو تأثير النفساني في الجسماني :

يقول ابن سينا[3] «وأما الآيات والمعجزات فإن قسمين من أقسامها يدخلان تحت تأثير النفساني في النفساني وقسما واحدا منها يدخل تحت تأثير النفساني في الجسماني، وذلك أن أصناف المعجزة ثلاثة» .

أما الصنفان الأوليان فأحدهما يتعلق بفضيلة العلم حيث يؤتى النبى الحكمة والعلم الإلهى دون تعلم بشرى وإنما من محض الفضل الإلهى كما قال النبى أوتيت جوامع الكلم .

هذا مع علم الكافة بأن النبى كان أميا نشأ في بيئة بدوية لا شأن لها بالمدارسة والبحث، وعلى ذلك فهذا العلم الإلهى الذي أوتيه النبى هو أحد ضروب

=طلبهم المعجزة لا كدليل على صدقه وإنما كمنجاة لهم من الموت والمرض لا يقدر عليها إلا الله .
فهم ليسوا في حاجة إلى معجزات هداية ليبنوا عليها إيمانهم ولكنهم يطلبون معجزات إكرام وهى لا تكون إلا للمؤمنين المقرين بإيمانهم .

(١) الأعراف : ١٧١ . (٢) يوسف :١٠٩ - ١١١ .
(٣) ابن سينا:رسالة فى الفعل والانفعال ص ٢ .

المعجزات عند ابن سينا وهو يدخل تحت تأثير النفساني في النفساني«إذ حقيقة الوحي هو الإلقاء الخفي من الأمر العقلي بإذن الله تعالى في النفوس البشرية المستعدة لقبول مثل هذا إما في حال اليقظة ويسمى الوحى وإما في حال النوم ويسمى النفث في الروع»[1] ولذلك فنفس النبى في حال تأهب واستعداد دائمين لتلقي سوانح الغيب عن طريق العلم الإلهى .

وفي مثل هذه النفس ـ على حد ما يذهب ابن سينا ـ قال تعالى: ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾[2] «فكأن مثال هذه النفس كبريت والعقل الفعال نار فيشتعل فيها دفعة واحدة ويحيلها إلى جوهره» [3] ويعبر الغزالى عن ذلك بقوله«يكاد زيتها يضيء ضوء الفطرة ولو لم تمسسه نار الفكرة»[4] .

وأما الصنف الثاني،الذي يدخل أيضا تحت تأثير النفساني في النفساني فهو يتعلق بما أوتيه النبى من قوة على تخيل الأمور الماضية،والحاضرة والاطلاع على بعض الأمور الغيبية في المستقبل«فيلقى إليه كثير من الأمور التي تقدم وقوعها بزمان طويل فيخبر عنها،وكثير من الأمور التي تكون في الزمان المستقبل فينذر بها وبالجملة يحدث عن الغيب فينتصب بشيرا ونذيراً وخاصيته الإنذار بالكائنات والدلالة على المغيبات»[5]وذلك ما دل عليه قوله تعالى: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك﴾[6] وقوله تعالى: ﴿ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك﴾[7] وقوله تعالى: ﴿الم.غلبت الروم.في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين﴾ [8] .

هذا بالإضافة إلى مأثور الأخبار النبوية كما أخبر النبى عليه السلام بموت النجاشى[9]وقوله لرسول كسرى«إن ربي تبارك وتعالى قد قتل ربك[10] فكان كما قال. . . الخ .

وهذا الانفتاح على الغيب قد يكون من الناس في حال النوم ويسمى الرؤيا الصادقة ولكنه للأنبياء يحدث في اليقظة وفي النوم ويفترق عما يكون لغيرهم بكثير من الفروق [11] .

---

(١) السابق بص ٣ . (٢) النور: ٣٥ . (٣) ابن سينا : السابق ص ٤ . (٤) الغزالي:معارج القدس ص١٦١ :١٦٣ . (٥) ابن سينا السابق ص ٤ . (٦) هود : ٤٩ . (٧) النساء : ١٦٤ . (٨) الروم : ١ : ٤ . (٩) رواه البخارى : فى صحيحه جـ٥ص٦٤ . (١٠) رواه أحمد :في مسنده جـ٥ص٤٣. (١١) انظر مبحث قدرة السحر على التنبؤ بالغيب ص١١١ :١٢٠ .

وعن تأثير النفساني في الجسماني يقول ابن سينا [1] «وأما الصنف الثالث من أصناف المعجزات فإنه يتعلق بفضيلة قوة النفس المحركة التي تبلغ من قوتها إلى القدرة على الإهلاك وقلب الحقائق من تدمير على قوم بريح عاصفة وصاعقة وطوفان وزلزلة وقلب العصا حية» .

ويدخل في هذا القسم إجابة الدعاء والحسد .

ولنا وقفة طويلة عند ذلك في مبحث تأويل المعجزة (٢) .

٥ ـ من حيث كونها عن الهمة أو عن الأمر :

فابن عربى يفرق بين نوعين مختلفين من التسخير :

الأول : الحاصل بوساطة قوة خاصة يطلق عليها الصوفية اسم الهمة .

الثانى : تسخير الأشياء بمجرد الأمر من غير استعانة بتلك القوة .

ويلزم من هذا أن من تسخر له الأشياء بوساطة الهمة لابد أن يكون قد وصل إلى درجة روحية خاصة هي درجة الجمعية التي يوجه بها همته نحو الشيء المراد فيحصل وفي هذا يقول : إن أجرام العالم تنفعل لهمم النفوس إذا أقيمت في مقام الجمعية [3] .

أما النوع الثانى من التسخير فهو قوة يهبها الله لمن يشاء من غير كسب ولا رياضة ولا توجيه لهمة أو نحوها .

يقول ابن عربي [4] «وأما التسخير الذي اختص به سليمان وفضل به غيره وجعله الله من الملك الذي لا ينبغى لأحد من بعده فهو كونه عن أمره فقال[5] ﴿فسخرنا له الريح تجرى بأمره﴾ . والله يقول في حقنا كلنا من غير تخصيص ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه﴾ [6] .

وقد ذكر تسخير الرياح والنجوم وغير ذلك، ولكن لا عن أمرنا بل عن أمر الله فما اختص سليمان إن عقلت إلا بالأمر من غير جمعية ولا همة، بل بمجرد الأمر» .

---

(١) ابن سينا: السابق ص ٥ .
(٢) انظر تعليقنا على الفصل الرابع من الباب الرابع
(٣) انظر أبو العلا عفيفي :التعليقات على فصوص الحكم لابن عربي جـ٢ ص٢١٨ .
(٤) ابن عربي : فصوص الحكم جـ١ ص ١٥٨ .
(٥) سوره ص : ٣٦ .
(٦) الجاثية : ١٣ .

وأرى أنه بفرض صحة اختصاص سليمان بذلك فهذا لا يعنى أفضليته على جميع الرسل لأن المزية لا تقتضى الأفضلية .

ولنا وقفة طويلة عند ذلك في مبحث تأويل المعجزة .

٦ - من حيث الدلالة على الشخص أو الشخص والنوع :

فابن تيمية يفرق بين نوعين من الآيات نوع يدل على الشخص فقط إذ النوع قد عرف من قبل . ويستشهد على ذلك بأن الله تعالى يبين نبوة محمد في غير موضع باعتبارها بنبوة من قبلة، وتارة يبين أنه لم يرسل ملائكة بل رجالا من أهل القرى ليبين أن هذا معتاد ومعروف ليس هو أمراً لم تجر به عادة الرب كقوله تعالى ﴿**وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾[1] وقوله[2] ﴿**وقالوا لولا أنزل عليه ملك،ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون**﴾ وكقوله[3] ﴿**وما محمد إلا رسولا قد خلت من قبله الرسل**﴾ وقوله[4] ﴿**قل ما كنت بدعا من الرسل**﴾ .

والنوع الثانى من الآيات يدل على الشخص والنوع إذ النوع لم يعرف من قبل ويمثل ابن تيمية لذلك النوع من الآيات بآيات نوح عليه السلام (٥) .

وكما قلنا من قبل فى حديثنا عن شروط المعجزة [6] .

إن ابن تيمية لم يوضح هذا الفرق بين المعجز الذي يدل على الشخص، والذي يدل على الشخص والنوع. أي بين معجزة نوح ومعجزة غيره من الأنبياء عليهم السلام .

وبصرف النظر عن الخلاف فى من هو أول الأنبياء. فكلام ابن تيمية هنا قد يمكن أن يكون صحيحاً وتكون هناك آيات خاصة بأول الأنبياء لتبين الشخص والنوع. وإن خفيت هذه الآيات على كثير منا ولا إشكال فى ذلك فدلالة المعجزة نسبية .

---

(١) الأنبياء : ٧ . (٢) الأنعام : ٨ - ٩. (٣) آل عمران : ١٤٤ .

(٤) الأحقاق : ٩ وكذلك ورد في الإنجيل على لسان المسيح عليه السلام:«لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقونى «يوحنا ٥:٤٦. (٥) انظر ابن تيمية : النبوات ص ١٤ ، ١٩ . (٦) انظر الشرط الرابع .

ثم إنا لسنا فى حاجة ملحة لهذه المعرفة لأنا كما يقول الرازى[1] «نعرف بظهور المعجز عليه كونه مشرفا عند الله على سبيل الإجمال من غير أن نعرف كيفية ذلك الشرف» وبالطبع من يشرفه الله لا يكذب عليه. وكما يقول ابن رشد[2] «إن من أقدره الله تعالى على هذا الفعل الغريب وخصه به من سائر أهل وقته فليس يبعد عليه ما يدعيه من أنه قد آثره الله بوحيه» لأن «من ظهرت عليه أمثال هذه الأشياء فهو فاضل والفاضل لا يكذب» [3].

أما إن قلنا إن آدم عليه السلام هو أول الأنبياء فقد كان له عليه السلام من الآيات الظاهرة ما يدل على الشخص والنوع وهو أنه عليه السلام أصل البشرية ولم يكن معه من يحتال عليه ويكذب في ادعاء النبوة إلا من هو فرعه وتابعه، ولم تنقطع النبوة في بنى آدم قال تعالى[4] **﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾** ومن ثم عرف النوع .

---

(١) الرازي : النبوات ص ١٨٤ .

(٢) ابن رشد : الكشف عن مناهج الأدلة ص ١٢٠ .

(٣) السابق : ص ١١٢ .

(٤) فاطر : ٢٤ .

obeikandl.com